بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بالعصر العباسي الأول، وكان طبيعياً أن أبدأ فيه بدراسة الحياة العباسية التي فرضت نفسها على الأدباء العباسيين فرضاً، سواء الحياة السياسية وما كان يجرى فيها من نظم وظروف وأحداث مختلفة، أو الحياة الاجتماعية وما كان يشيع فيها من تحضر وترف وشغف بالغناء وإغراق في المجون وزندقة وزهد ونسك، أو الحياة العقلية وما التحم بها من ترجمة الثقافات الأجنبية ونشاط الحركة العلمية ونقل علوم الشعوب المستعربة ووضع العلوم اللغوية والتاريخ والعلوم الدينية والكلامية.

وقد بسطت القول في ازدهار الشعر العربي حينئذ ازدهاراً رائعاً، إذ أكب الشعراء على العربية يتقونها ويتمثلون ملكتها وسليقتها تمثلاً دقيقاً، نافذين بذوقهم المتحضر إلى أسلوب مصفى يجمع حيناً بين الجزالة والرصانة، وحيناً يجمع بين الرقة والعذوبة وكان تأثرهم عميقاً بالثقافات المترجمة وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة مما أثار في عقولهم ونفوسهم كثيراً من المعاني والخواطر التي لا تكاد تحصى، ودفعهم إلى التطور بموضوعات الشعر الموروثة تطوراً نلمس فيه روح العصر وخصب الفكر ورهافة الشعور، وأضافوا إليها موضوعات جديدة بما نفذوا إليه من تحليل المعاني والملاءمة بين أشعارهم وبيئاتهم المتحضرة وحياتهم اليومية. وفتحوا صفحة لم تكن تخطر لأسلافهم على بال، هي صفحة الشعر التعليمي الذي صاغوا فيه من المعارف والتاريخ والأمثال والقصص الحيواني منظومات طريفة. واكتشفوا للشعر أوزاناً لم تكن معروفة وأنماطاً من القوافي كانت مجهولة.

ودرست دراسة نقدية تاريخية أعلام الشعر في العصر، وهم بشار أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام، وحاولت أن أرسم شخصياتهم الأدبية وأثرهم في تطور الشعر العربي وتجديده، فأما بشار فسن لشعراء أن يزاوجوا مزاوجة دقيقة بين عناصر الشعر التقليدية وعناصره التجديدية، بحيث يتدافع فيه تيار القديم الموروث دون تعويق لتيار الجديد المستحدث وسيولة الحضارية والاجتماعية والعقلية. وكان تأثير هذه السيول في أبي نواس أشد عمقاً وأكثر حدة

فتعمق مذاهب المتكلمين وأسرف على نفسه في اللهو والمجون، وعكف أبو العتاهية على الحكمة الفارسية والهندية واليونانية عكوفاً أفضى به إلى تنويع واسع في أشعار الزهد والمواعظ والأمثال. وجذب مسلم بن الوليد الشعراء إلى أبنية الشعر المحكمة الشامخة مع التدقيق الشديد في المعاني والإكثار من ألوان البديع. أما أبو تمام فامتزج الشعر عنده بالفلسفة امتزاجاً رائعاً، بحيث أصبح معرضاً باهراً لطرائف البديع وطرائف المعاني والأخيلة البارعة.

ووراء هؤلاء الأعلام كثيرون كان لكل منهم دور في تطور الشعر في العصر تطوراً يتفاوتن قوة وضعفاً، مما دفعني إلى رسم موجز لشخصياتهم وخصائصهم، ووضعهم في فصائل متقابلة، والتمست لكل فصيلة صفوة من يمثلونها، فللسياسة ممثلوها، وكذلك للمديح والهجاء والغزل والمجون والزهد والنسك والاعتزال والنزعات الشعبية.

وانتقلت أدرس النثر وما حدث من تطوره وكثرة فنونه بتأثير ما ثقفه الوعاظ والمتكلمون والكتاب من كنوز الثقافات والآداب الأجنبية. وقد نشطت الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعاظ وقصص وقصاص، ونفذ المتكلمون إلى فن نثري مستحدث هو فن المناظرات، ونموه ورقوا به رقياً بعيداً وازدهر النثر الديواني وكل ما اتصل به من رسائل سياسية ومن عهود ووصايا وتوقيعات، وجسر الكتاب كثيراً من الرسائل الإخوانية البديعة متناولين فيها الأغراض التي كان ينظم فيها الشعراء والتي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم، ودبج نفر منهم رسائل أدبية خالصة حللوا فيها النفس الإنسانية وأهواءها وسلوكها حيناً، وحيناً حاكوا قصص كليلة ودمنة قاصدين بمحاكاتهم إلى التربية السياسية والاجتماعية.

وعنيت برسم شخصيات أعلام الكتاب في العصر وآثارهم الدبية، وهم ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات، فأما ابن المقفع فنقل إلى العربية أروع ما تحمل لغته من ذخائر فارسية وغير فارسية، وكتب رسائل إخوانية بديعة وافتن سهل بن هرون في كتابه رسائل قصصية وأخرى أدبية وإخوانية مع العناية بالازدواج وجمال الجرس والأداء. وبرع أحمد بن يوسف في كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية مضفياً على أساليبه كل منا يستطيع من صور التنميق. وحرص عمرو بن مسعدة على التأنق والاقتصاد المسرف في التعبير، ولم يكن ابن

الزيات يتأنق في كتاباته غير أنه كان يعنى بحسن القول وجزالـة اللفـظ ورصـانته، والله أسـأل أن يلهمني السداد والإخلاص في الفكر والقول والعمل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

شوقي ضيف

القاهرة في أول ديسمبر سنة ١٩٦٦م.